الست بهادر.. وداعاً

مضى على تقاعدها لبلوغها السن القانونية أكثر من عشرين سنة. وظلت حتى آخر أيامها تتمتع لا بصفاء الذهن وحسب ولكن أيضاً باستشعار مسؤولية اتخاذ القرارات في نطاق الأسرة والمنزل والأقارب والمعارف الذين يلوذون بطرفها، هي الست المديرة، والتي مارست مسؤولية الإدارة واتخاذ القرار أكثر من أربعين سنة في مدارس غزة، ودرست على يديها أجيال وأجيال من البنات، ومعظمهن اليوم جدات وربات بيوت يذكرن (الست بهادر صوان) بمزيج من الحب والرهبة والاعتراف بالجميل.

كانت حادة كالسيف، فصيحة كخطيب جاهلي، مخلصة كصحابي جليل، دؤوبة كالنحلة، ناقدة كطائر الأعالي، ذات همة لا تفتر وتصميم لا يتراجع كأنها قائد عسكري حديدي القلب والإرادة.

أما معاركها فهي المعارك ضد الجهل والكسل والرسوب، وأما ميدانها فهو المدرسة واليوم الدراسي الذي يبدأ عندها قبل ساعات الدراسة وينتهي بعد أن تستنفذ الأنشطة الأخرى وقتاً إضافيا في معظم الأيام.

لقد حملت رسالة التربية والتعليم على محمل الجد لا بل على محمل القداسة. وبذلت من الجهد والعرق ما لا يبذله إلا أصحاب الرسالات الذين تتقد في قلوبهم شعلة دائمة. وكانت تفهم أن مديرة المدرسة هي أشبه بقائد الجند حقاً، فإذا ضعف أو تراخى انتقلت العدوى الى الجميع. فكانت تحرص حتى في حالات مرضها أو شعورها بالتعب أن لا يؤثر ذلك على النظام اليومي والمواعيد المقررة. وأعتقد أنها لم تحصل طوال خدمتها على إجازات غير إجازات الصيف والأعياد والجمع إلا في النادر القليل.

كانت تعنى عناية خاصة بالصفوف المقبلة على امتحانات الشهادات العامة. فتقوم بنفسها بعقد الحصص الإضافية قبل موعد الدوام المدرسي أو بعده حسب الظروف. وكانت تشرف بنفسها على الأنشطة المدرسية الأخرى كالحفلات والمعارض، وكم كان فرحها عظيماً حين يحالف التوفيق تلميذاتها النجيبات فيحصلن على علامات التفوق، وحين يتكلل نشاط مدرسي بالنجاح ورضا الجمهور.

هكذا أنفقت أكثر من أربعين سنة في عمل خالص لوجه الله الذي يحب الإنسان إذا عمل عملاً أن يتقنه. ووسع قلبها مئات الناشئات اللواتي رأين وجهها الصارم في غالب الأحيان، ورأين وجه الأم الحنون كلما أصابهن أذى أو مرض أو تعب.

رحم الله بهادر شعبان صوان. لقد كانت واحدة من الرعيل الممتاز ذي الأيادي البيضاء على التربية والتعليم في فلسطين. وهو رعيل يصعب تعويضه في زماننا البخيل.